حل مشكلات بعض الآيات الكريمة وبيان بعض هداياتها

(الجزء الأول)

بقلم

محمد توحيد الإسلام بن أبي طاهر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول رب العالمين. أما بعد؛ فهذه رسالة صغيرة في حل بعض مشكلاتِ عدّةِ آيات كريمة. وكان سبب تصنيفها أني أحسست في تلك الآيات الحكيمة صعوبةً في بعض أمرها، فحينئذ تتبعتُ في الكتب حلا لها، وقد بذلت في ذلك قريبا من شهرين، لكنّي لم أجد لها حلّا شافيًا.. ففي ذلك الوقت حرّرتُ هذه الرسالةَ في حل تلك المشكلات، فجمعتُ فيها ما وجدتُه في الكتب، وما ظهر لي بفضل الله تعالى. وجدير بالذكر أنّ ذلك المقال كان في الأصلِ منحصِرًا على حلِّ تلك المشكلات، لكن تلك الآيات مهمّةٌ جدًّا لأهل العصر الحديث لأسباب كثيرة؛ وبإعتبار ذلك أضفتُ معها بعضَ التأويلات والهدايات لتلك الآيات الكريمة. وأسأل الله تعالى أن ينفع به العباد، وأن يجعل عملنا صالحًا، ولوجهه خالصًا. وصلى الله تعالى على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليمًا كثيراً.

نص القرآن

قال الله عز وجل: {اِنَّ الَّذِيۡنَ ارۡتَدُّوۡا عَلٰٓى اَدۡبَارِهِمۡ مِّنۡۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الۡهُدَى ۙ الشَّيۡطٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ ؕ وَاَمۡلٰى لَهُمۡ (٢٥) ذٰلِكَ بِاَنَّهُمۡ قَالُوۡا لِلَّذِيۡنَ كَرِهُوۡا مَا نَزَّلَ اللّٰهُ سَنُطِيۡعُكُمۡ فِىۡ بَعۡضِ الۡاَمۡرِ ۖۚ وَاللّٰهُ يَعۡلَمُ اِسۡرَارَهُمۡ (٢٦) فَكَيۡفَ اِذَا تَوَفَّتۡهُمُ الۡمَلٰۤئِكَةُ يَضۡرِبُوۡنَ وُجُوۡهَهُمۡ وَاَدۡبَارَهُمۡ (٢٧) ذٰلِكَ بِاَنَّهُمُ اتَّبَعُوۡا مَاۤ اَسۡخَطَ اللّٰهَ وَكَرِهُوۡا رِضۡوَانَهٗ فَاَحۡبَطَ اَعۡمَالَهُمۡ (٢٨)} [سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ٢٥-٢٨].

[توضيح بعض المواضع المشكلة للآيات الكريمة]

اختلف المفسرون في إيضاح مراد قوله تعالى: {اِنَّ الَّذِيۡنَ ارۡتَدُّوۡا عَلٰٓى اَدۡبَارِهِمۡ.. ذٰلِكَ بِاَنَّهُمۡ قَالُوۡا لِلَّذِيۡنَ كَرِهُوۡا مَا نَزَّلَ اللّٰهُ}..

وذلك في أربعة مواضع – على مقصودنا هنا –:

أولها: مَن «الذين ارتدوا على أدبارهم»؟

وثانيها: ما مرجع «ذلك»؟

وثالثها: مَن الذين «قالوا»؟

ورابعها: مَن «الذين كرهوا ما نزل الله»؟

وهذه المباحث تقتضي بسطَ الكلام، وهذا ليس موضع ذلك؛ لذا نختار الاختصارَ في بيان المذاهب، ونطيل الكلام شيئًا يسيرًا في بيان التفسير المختار، والله تعالى هو الموفِّق والمعين.

الموضع الأول

أما أولها، أعني: من الذين ارتدوا على أدبارهم؟ ففيهم قولان:

أحدهما: أنهم اليهود، قاله قتادة [عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٢٤)، وفي المصنَّف (١٠٢١٢)، وابن جرير (٢١/٢١٧)]، ومقاتل (تفسير مقاتل بن سليمان، ٤/٤٩) وابن جريج (الدر المنثور). واختاره بعضُ العلماء، كالواحدي في التفسير البسيط، والزمخشري، ومجير الدين العُلَيْمي.

قال الشنقيطي: وقال بعض العلماء: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ، فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به. وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته -ﷺ- ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم. وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} [٢\٨٩]؛ لأن قوله: {فلما جاءهم ما عرفوا} مبين معنى قوله: {من بعد ما تبين لهم الهدى}، وقوله: {كفروا وصدوكم} مبين معنى قوله: {ارتدوا على أدبارهم}. أضواء البيان، ٧/٣٧٩.

والثاني: أنهم المنافقون. قاله ابن عباس (ابن جرير، ٢١/٢١٨)، والضحاك (ابن جرير، ٢١/٢١٨)، والسدي (تفسير الثعلبي، ٢٤/٢٠٢).

واختاره جماعة من المفسرين، كابن جرير، وابن أبي زَمَنِين (تفسير القرآن العزيز، ٤/٢٤٣)، والإيجي (جامع البيان، ٤/١٤٦)، والنسفي (مدارك التنزيل، ٣/٣٢٨)، والسيوطي (تفسير الجلالين)، والنسفي (التيسير في التفسير، ١٣/٤٢٧)، والكوراني (غاية الأماني، ٦/٥٨٨؛ ط. دار الحضارة)، وأبي السعود، والشوكاني، والآلوسي (روح المعاني، ١٣/٢٢٩)، وابن عاشور وغيرهم.

قال ابن جرير بعد أن ذكر قولَ الضحاك وابن عباس رضي الله عنهم: «وهذه الصفة بصفة أهل النفاق عندنا أشبه منها بصفة أهل الكتاب، وذلك أن الله عز وجل أخبر أن ردتهم كانت بقيلهم {للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر}، ولو كانت

من صفة أهل الكتاب لكان في وصفهم بتكذيب محمد ﷺ الكفايةُ من الخبر عنهم بأنهم إنما ارتدوا من أجل قيلهم ما قالوا». تفسير الطبري، ٢١٨/٢١.

وظاهر الآية يدل على أنهم قوم كفروا بعد إيمانهم، قال الشنقيطي: الظاهر أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، قوم كفروا بعد إيمانهم. أضواء البيان، ٣٧٩/٧. وقال ابن عاشور بعد ذكر الآية: لم يزل الكلام على المنافقين فالذين ارتدوا على أدبارهم منافقون. التحرير والتنوير، ١١٤/٢٦. وقال الشوكاني: وقال الضحاك والسدي: هم المنافقون قعدوا عن القتال، وهذا أولى لأن السياق في المنافقين. فتح القدير ٥/ ٤٦-٤٧.

وقال القِنَّوجي: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم) أي رجعوا كفارا كما كانوا، قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبي ﷺبعد ما عرفوا نعته عندهم، وبه قال ابن جريج. وقال ابن عباس: هم أهل النفاق، وقال الضحاك والسدي: هم المنافقون قعدوا عن القتال، وهذا أولى لأن السياق في المنافقين. فتح البيان، ٧٢/١٣. وقال عبد الكريم يونس الخطيب: والآية ترجم أولئك الذين كانوا قد دخلوا فى الإيمان، ثم لم يحتملوا تبعاته، فعادوا إلى الكفر.. وفى ارتدادهم على الأدبار إشارة إلى أنهم كانوا على الإسلام. التفسير القرآني للقرآن (٣٦١/١٣؛ ط. دار الفكر العربي).

وذكر ابن عطية القولين، ثم علق بقوله: والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر. المحرر الوجيز، ١١٩/٥. وقال أبو حيّان: والآية تتناول كل من دخل في ضمن لفظها. البحر المحيط في التفسير، ٤٧٣/٩. وأما جماعة من المفسرين فقد ساقوا القولين وسكتوا عن الترجيح.

الموضع الثاني

وأما ثانيها، أعني: ما المشار إليه لذٰلِكَ؟

قال فخر الدين الرازي: قال بعض المفسرين: {ذلك} إشارة إلى الإملاء، أي ذلك الإملاء بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا، وهو اختيار الواحدي. وقال بعضهم: {ذلك} إشارة إلى التسويل. ويحتمل أن يقال: {ذلك} الارتداد بسبب أنّهم قالوا: "سنطيعكم"، وذلك لأنا نبين ... إلخ. التفسير الكبير، ٥٦/٢٨.

وقال القرطبي: قوله تعالى: "ذلك بأنهم قالوا" أي ذلك الإملاء لهم حتى يتمادوا في الكفر بأنهم قالوا ... اهـ. تفسير القرطبي، ٢٥٠/١٦.

وقال بعض المفسرين: {ذٰلِكَ} إشارة إلى الإضلال كالزجاج في معاني القرآن، وابن

أبي طالب في الهداية إلى بلوغ النهاية، والعُلَيمي في فتح الرحمن، والخطيب الشربيني في السراج المنير، والسيوطي في تفسير الجلالين، والمراغي في تفسيره.

وقال جماعة من العلماء: الإشارة بقوله: {ذَٰلِكَ} إلى ارتدادهم (والإضلال والارتداد – ههنا – بمعنى واحد)، منهم: أبو السعود، والشوكاني في فتح القدير، والآلوسي، والقِنَّوجي في فتح البيان، والقاسمي، وطنطاوي في التفسير الوسيط.

وقد انتَقَد أبو السعود القول بأن {ذَٰلِكَ} إشارة إلى ... حيث قال: «{ذلك} إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم، لا إلى الإملاء كما نقل عن الواحدي، ولا إلى التسويل كما قيل، لأن شيئا منهما ليس مسببا عن القول الآتي، وهو مبتدأ، خبره قوله تعالى: {بأنهم} أي بسبب أنهم {قالوا} يعني المنافقين المذكورين..». إرشاد العقل السليم، ٩٩/٨. وهذا قاله أيضًا ابن عجيبة في البحر المديد (٣٧٤/٥)، والآلوسي في روح المعاني، ٢٣١/١٣. وقد سبق هذا في كلام ابن جرير أيضًا في بحث الموضع الأول.

قال القُونَوي: {ذلك} أي الارتداد بعد ما تبين لهم الهدى. قيل: ولا يكون إشارة إلى التسويل، ولا إلى الإملاء، لأن شيئا منهما ليس مسببا عن القول الآتي انتهى. ولا كلام في كونه سببا بعيدا، وإن سلم عدم كونه سببا قريبا، وأيضا كون القول الآتي سببا قريبا للارتداد المذكور ليس بواضح. حاشيته على تفسير البيضاوي (٣٨/١٨، ط. العلمية).

قلث: لا بُعْدًا كبيرًا بين القولَين، فإنّ لأجل الإملاء والتسويل قالوا ما قالوا، فارتدّوا عن الدين، فنتيجة الإملاء أيضًا: الارتداد.

قال الشنقيطي: وقد بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن سبب ارتداد هؤلاء القوم من بعد ما تبين لهم الهدى، هو إغواء الشيطان لهم كما قال تعالى مشيرا إلى علة ذلك: {الشيطان سول لهم} أي زين لهم الكفر والارتداد عن الدين، {وأملى لهم} أي مد لهم في الأمل، ووعدهم طول العمر.. وإيضاح هذا: أن هؤلاء المرتدين على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وقع لهم ذلك بسبب: أن الشيطان سول لهم ذلك، أي سهله لهم، وزينه لهم، وحسنه لهم، ومناهم بطول الأعمار؛ لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي.. والإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر} راجعة إلى قوله تعالى: {الشيطان سول لهم وأملى لهم}، أي ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم: {قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر}. أضواء البيان، ٧/ ٣٧٩-٣٨١.

وقال ابن عاشور: {ذلك بأنهم قالوا}.. استئناف بياني إذ التقدير: أن يسأل سائل عن مظهر تسويل الشيطان لهم الارتداد بعد أن تبين لهم الهدى، فأجيب بأن الشيطان استدرجهم إلى الضلال عند ما تبين لهم الهدى، فسول لهم أن يوافقوا أهل الشرك والكفر في بعض الأمور مسولا أن تلك الموافقة في بعض الأمر لا تنقض اهتداءهم، فلما وافقوهم وجدوا حلاوة ما ألفوه من الكفر فيما وافقوا فيه أهل الكفر، فأخذوا يعودون إلى الكفر المألوف، حتى ارتدوا على أدبارهم. التحرير والتنوير، ١١٦/٢٦.

الموضعان الثالث والرابع

وأما ثالثها ورابعها، أعني: مَن القائلون ومَن المخاطَبون في قول الله عز وجل: «قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر».

١. فقال بعض المفسرين: إن المنافقين قالوا للمشركين وهم الذين كرهوا ما نزل الله، واختاره أبو حفص النسفي (التيسير في التفسير، ٤٢٧/١٣)، والسيوطي (تفسير الجلالين)، والخطيب (السراج المنير، ٣٢/٤)، والشوكاني (فتح القدير، ٤٧/٥)، والقنَّوْجِي (فتح البيان، ٧٣/١٣).

٢. وقال بعضهم: المنافقون واليهود أو أحد الفريقين قالوا للمشركين، واختاره الثعلبي (الكشف والبيان، ٢٠٣/٢٤)، وابن عادل (اللباب في علوم الكتاب، ٤٦١/١٧)، والخازن (لباب التأويل، ١٤٨/٤)، والقرطبي (تفسير القرطبي، ٢٥٠/١٦)، والبغوي (تفسير البغوي، ٢٨٨/٧)، والملا علي القاري (أنوار القرآن، ٤/ ٥٠٧، ط. دار الكتب العلمية).

٣. وقال بعضهم: المنافقون هم القائلون، والذين كرهوا ما نزل الله هم: إما المشركون وإما اليهود، واختاره ابن عاشور (التحرير والتنوير، ٢٦/ ١١٧-١١٦)، ويُختاره أيضا في تفسير ماجدي (بالأردية).

٤. وقال جماعة من العلماء: قالت اليهود للمنافقين، أو المنافقون لهم، أو أحد الفريقين للمشركين، كالبيضاوي وغيره.

٥. وقال ابن جريج ومقاتل وقتادة: إن القائلين اليهود، والذين كرهوا ما أنزل الله هم المنافقون، واختاره بعضهم كأبي حيان في البحر المحيط، والسخاوي في تفسير القرآن العظيم، والزمخشري في الكشاف.

٦. وقال بعضهم: اليهود قالوا للمشركين، كالواحدي في التفسير البسيط، والعليمي

في فتح الرحمن.

٧. وقال كثير من المفسرين: الضمير في {قالوا} للمنافقين، والذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود، منهم: الفقيه أبو الليث (بحر العلوم، ٣/٣٠٤)، والنسفي (مدارك التنزيل، ٣/٣٢٩)، وابن أبي طالب (الهداية الى بلوغ النهاية، ٦٩١٤/١١)، والسمعاني (تفسير السمعاني، ١٨٢/٥)، والكوراني (غاية الأماني، ٥٨٩/٦)، وأبو السعود، والآلوسي، والقاسمي، وطنطاوي. ويختاره أيضًا في: تفسير بيان القرآن، ومعارف القرآن وتفسير حقّانى (بالأردية).

قال الشوكاني: ويؤيد كون القائلين المنافقين والكارهين اليهود قوله تعالى: {اَلَمۡ تَرَ اِلَى الَّذِيۡنَ نَافَقُوۡا يَقُوۡلُوۡنَ لِاِخۡوَانِهِمُ الَّذِيۡنَ كَفَرُوۡا مِنۡ اَہۡلِ الۡكِتٰبِ لَئِنۡ اُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيۡعُ فِيۡكُمۡ اَحَدًا اَبَدًا ۙ وَّاِنۡ قُوۡتِلۡتُمۡ لَنَنۡصُرَنَّكُمۡ} (٥٩: ١١). فتح القدير، ٤٧/٥.

انتقد أبو السعود القول...، فقال: {ذلك} إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم.. {بأنهم} أي بسبب أنهم {قالوا} يعني المنافقين المذكورين، لا لليهود الكافرين به عليه الصلاة والسلام بعد ما وجدوا نعته في التوارة كما قيل، فإن كفرهم به ليس بسبب هذا القول، ولو فرض صدوره عنهم سواء كان المقول لهم المنافقين أو المشركين على رأي القائل، بل من حين بعثته عليه الصلاة والسلام {للذين كرهوا ما نزل الله} أي لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ مع عملهم بأنه من عند الله تعالى حسدا وطمعا في نزوله عليهم، لا للمشركين كما قيل، فإن قوله تعالى {سنطيعكم فى بعض الأمر} عبارة قطعا عما حكي عنهم بقوله تعالى {اَلَمۡ تَرَ اِلَى الَّذِيۡنَ نَافَقُوۡا يَقُوۡلُوۡنَ لِاِخۡوَانِهِمُ الَّذِيۡنَ كَفَرُوۡا مِنۡ اَہۡلِ الۡكِتٰبِ لَئِنۡ اُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيۡعُ فِيۡكُمۡ اَحَدًا اَبَدًا ۙ وَّاِنۡ قُوۡتِلۡتُمۡ لَنَنۡصُرَنَّكُمۡ} وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم. إرشاد العقل السليم، ٨/ ٩٩-١٠٠.

وانتقد الآلوسي القول...، بقوله: {ذلك} إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم.. {بأنهم} أي بسبب أنهم {قالوا} يعني المنافقين {للذين كرهوا ما نزل الله} هم بنو قريظة والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام.. وقيل: القائلون اليهود الكافرون به ﷺ بعد ما وجدوا نعته الشريف في كتابهم، والمقول لهم المنافقون، كان اليهود يعدونهم النصرة إذا أعلنوا بعداوة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقيل: القائلون أولئك اليهود، والمقول لهم المشركون، كانوا يعدونهم النصرة أيضا إذا حاربوا. وتعقب كلا القولين بأن كفر اليهود به عليه الصلاة والسلام ليس بسبب هذا القول، ولو فرض صدوره عنهم على رأي القائل بل من حيث

إنكارهم بعثه عليه الصلاة والسلام، وقد عرفوه كما عرفوا أبناءهم وآباءهم، ومنه يعلم ما في قول بعضهم: إن القائلين هم المنافقون واليهود، والمقول لهم المشركون، وما فسرنا به الآية الكريمة مروي عن الحبر رضي الله تعالى عنه. روح المعاني، ٢٣١/١٣.

وليعلم أيًا ما كان – سواء كان القائلون المنافقين، واللذين كرهوا ما نزل الله إما اليهود أو المشركون أو غيرهم من الكفار – أن ظاهرَ نظم القرآن يتناول كلّ ما يشمله عموم ألفاظ الآية. قال الإمام أبو منصور الماتريدي: ثم قال بعضهم: الذين كرهوا ما نزل الله هم المنافقون، قالوا لليهود: سنطيعكم في تكذيب محمد والمظاهرة عليه. وقال بعضهم: هم اليهود، ظاهروا سائر الكفرة على محمد -ﷺ- وأصحابه رضي الله عنهم. ثم كراهة نزول ما أنزل الله على رسوله - عليه الصلاة والسلام - كان من اليهود وجميع الكفرة؛ لقوله -تعالى-: (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم)، والله أعلم. تأويلات أهل السنة (٢٨١/٩؛ ط. دار الكتب العلمية).

وقال الشنقيطي: واعلم أن هذه الآية الكريمة، قد قال بعض العلماء: إنها نزلت في المنافقين. وقال بعضهم: إنها نزلت في اليهود، وإن المنافقين أو اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، وهو عداوة النبي -ﷺ- والتعويق عن الجهاد ونحو ذلك. وبعضهم يقول: إن الذين اتبعوا ما أسخط الله هم اليهود حين كفروا بالنبي -ﷺ- لما عرفوه وكرهوا رضوانه، وهو الإيمان به - ﷺ. والتحقيق الذي لا شك فيه: أن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله. أضواء البيان، ٣٨٣/٧.

قلنا: ما قال الماتردي، يعني قوله: "ثم كراهة نزول..." إلخ، والشنقيطي، يعني قوله: "والتحقيق الذي لا شك فيه..." إلخ، فهو موافق للأصل الذي في أصول التفسير، أي: «العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب». على أن لفظ "الذين" في قوله تعالى: {للذين كرهوا ما نزل الله} فهي أسم موصول تفيد العمومية.

ولعل من هذا الاعتبار فَسّره بعض المفسّرين عاما، كما قال الفخر الرازي: وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا المنافقون، فكانوا يقولون للمجاهرين من الكفار: «سنطيعكم في بعض الأمر». التفسير الكبير، ٥٧/٢٨.

وقال عبد الرحمن السعدي: و {قالوا للذين كرهوا ما نزل الله} من المبارزين العداوة لله ولرسوله. تيسير الكريم الرحمن، صفحة ٧٨٩.

وقال في تفسير موضح قرآن: منافقوں نے کافروں سے کہا کہ... اھـ.

وترجم الشيخ تقي العثماني - حفظه الله - هذه الآية بحيث: جو لوگ اللہ کی نازل کی ہوئی باتوں کو ناپسند کرتے ہیں، ان (منافقوں) نے ان سے یہ کہا ہے کہ: «بعض معاملات میں ہم تمہاری بات مانیں گے» (توضيح القرآن) اهـ.

النتيجة

إنَّ الذين ارتدّوا على أدبارهم هم المنافقون، ومرجع "ذلك" الارتداد، والذين قالوا: "سنطيعكم في بعض الأمر" هم المنافقون، والذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود. وهذا اختيارُ كثيرٍ من المفسرين، لكن ظاهر الآية تتناول كلّ ما دخل في ضمن لفظها. والله تعالى أعلم.

شيءٌ من تفسير الآيات الحكيمة

قوله تعالى: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم}

قال ابن كثير: ثم قال تعالى: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم} أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر. تفسير ابن كثير، ٣٢٠/٧. وقال السعدي: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم..} يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران. تيسير الكريم الرحمن، صفحة ٧٨٩. وقال الطبري: وقوله: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى}، يقول الله عز وجل: إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفارا بالله. جامع البيان، ٢١٧/٢١. [١] وقال الواحدي: قوله تعالى: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم} رجعوا كفارا. التفسير البسيط، ٢٥٦/٢٠. [٢] وقال أبو البركات النسفي: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم..} أي.. رجعوا إلى الكفر. مدارك التنزيل، ٣٢٨/٣. [٣] وقال أبو السعود: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم} أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر. إرشاد العقل السليم، ٩٩/٨. [٤]

وهذا ما به فسره عامة المفسرين. وقيل: إنَّ الذين ارتدّوا، أي رجعوا عن موقع

---

[١] ويراجع: الهداية إلى بلوغ النهاية (٦٩١٢/١١)، تفسير الخازن (١٤٨/٤)، تفسير المراغي، ٦٩/٢٦.

[٢] وينظر: تفسير البغوي (٢٨٧/٧)، زاد المسير (١٢٠/٤)، اللباب في علوم الكتاب (٤٥٩/١٧)، السراج المنير، ٣٢/٤. ←

القتال بعد أن نزلوا به.

قال أبو جعفر الطبري (٣١٠ هـ): وقوله: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى} يقول الله عز وجل إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفارا بالله من بعد ما تبين لهم الحق وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجة، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لأمر الله ـ تعالى ذكره ـ من بعد العلم.. وقوله: {الشيطان سول لهم} يقول تعالى ذكره: الشيطان زين لهم ارتدادهم على أدبارهم، من بعد ما تبين لهم الهدى.. وقوله: {وأملى لهم} يقول: ومد الله لهم في آجالهم ملاوة من الدهر.. قوله تعالى: {ذلك بأنهم}، يقول تعالى ذكره: أملى الله لهؤلاء المنافقين وتركهم، والشيطان سول لهم، فلم يوفقهم للهدى من أجل أنهم {قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر} الذي هو خلاف لأمر الله تبارك وتعالى، وأمر رسوله ﷺ.. وقوله: {ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله} يقول تعالى ذكره: تفعل الملائكة هذا الذي وصفت بهؤلاء المنافقين من أجل أنهم اتبعوا ما أسخط الله، فأغضبه عليهم من طاعة الشيطان {وكرهوا رضوانه} يقول: وكرهوا ما يرضيه عنهم من قتال الكفار به، بعد ما افترضه عليهم. وقوله: {فأحبط أعمالهم} يقول: فأبطل الله ثواب أعمالهم وأذهبه، لأنها عملت في غير رضاه ولا محبته، فبطلت، ولم تنفع عاملها. جامع البيان، ٢١/ ٢١٧-٢٢١.

وقال ابن كثير (٧٧٤ هـ): {الشيطان سول لهم} أي: زين لهم ذلك وحسنه، {وأملى لهم} أي: غرهم وخدعهم، {ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر} [٥] أي: مالئوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن

---

[٣] ويراجع: معاني القرآن للزجاج (١٣/٥)، رُموز الكنوز (٢٧١/٧)، تفسير الإيجي (١٤٦/٤)، فتح الرحمن للعُلَيْمي (٣٢٢/٦؛ ط. دار النوادر)، البحر المديد، ٣٧٤/٥.

[٤] وينظر: تفسير البيضاوي (١٢٣/٥)، فتح القدير للشوكاني (٤٦/٥)، التفسير المظهري (٤٣٥/٨)، روح المعاني (٢٢٩/١٣)، فتح البيان للقِنَّوجي (٧٢/١٣)، تفسير القاسمي، ٤٧٦/٨.

[٥] قال أبو محمد القرطبي (437هـ): فالمنافقون هم القائلون لليهود: {سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر} أي: في النصر على محمد. الهداية، ٦٩١٤/١١. وقال أبو المظفر السمعاني (489هـ): وَقَوله: {سنطيعكم فِي بعض الْأَمر} أَي: فِي بغض مُحَمَّد والعداوة

المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: {والله يعلم إسرارهم} أي: يعلم ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به.. ثم قال: {فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم} أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال:.. {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم} أي: بالضرب {أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون} [٦: ٩٣]؛ ولهذا قال ها هنا: {ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم}. تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٢٠-٣٢١.

وقال أبو السعود (٩٨٢ هـ): {إن الذين ارتدوا على أدبارهم} أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وهم المنافقون.. فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام {من بعد ما تبين لهم الهدى} بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة.. وقوله تعالى {الشيطان سول لهم}.. أي سهل لهم ركوب العظائم.. {وأملي لهم} وعد لهم في الأماني والآمال.. {ذلك} إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم.. وهو مبتدأ، خبره قوله تعالى {بأنهم} أي بسبب أنهم {قالوا} يعني المنافقين المذكورين {للذين كرهوا ما نزل الله} أي لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ.. قوله تعالى {سنطيعكم فى بعض الأمر} عبارة.. عما حكي عنهم بقوله تعالى: {اَلَمۡ تَرَ اِلَى الَّذِيۡنَ نَافَقُوۡا يَقُوۡلُوۡنَ لِاِخۡوَانِهِمُ الَّذِيۡنَ كَفَرُوۡا مِنۡ اَهۡلِ الۡكِتٰبِ لَئِنۡ اُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيۡعُ فِيۡكُمۡ اَحَدًا اَبَدًا ۙ وَّاِنۡ قُوۡتِلۡتُمۡ لَنَنۡصُرَنَّكُمۡ} وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم. وأرادوا بالبعض الذي أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه: إظهار كفرهم، وإعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم، وإخراجهم من ديارهم؛ فإنهم كانوا يأبون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية إليه، لما كان لهم في إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية. وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرا، كما يعرب عنه قوله تعالى {والله يعلم إسرارهم} أى إخفاءهم لما

مَعَه. تفسيره، ١٨٢/٥. وقال أبو البركات النسفي (710هـ): {سَنُطِيعُكُمْ فِى بعض الأمر} أى عداوة محمد والقعود عن نصرته... {اتبعوا مَا أَسْخَطَ اللّه} من معاونة الكافرين {وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ} من نصرة المؤمنين {فَأَحْبَطَ أعمالهم}. مدارك التنزيل، ٣٢٩/٣.
وقال محمد الإيجي (905هـ): (سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ): بعض أموركم في عداوة الإسلام. جامع البيان، ١٤٦/٤.

يقولنه لليهود.. {ذلك} التوفي الهائل {بأنهم} أي بسبب أنهم {اتبعوا ما أسخط الله} من الكفر والمعاصي {وكرهوا رضوانه} أي ما يرضاه من الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود {فأحبط} لأجل ذلك {أعمالهم} التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات أو بعد ذلك من أعمال البر التي لو عملوها حال الإيمان لَا نْتَفَعُوْا بها. إرشاد العقل السليم، ٨/٩٩-١٠٠.

وقال جمال الدين القاسمي (١٣٣٢ هـ): {إن الذين ارتدوا على أدبارهم} أي عادوا لما كانوا عليه من الكفر {من بعد ما تبين لهم الهدى} أي الحق بواضح الحجة.. {ذلك} إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم، {بأنهم} أي بسبب أنهم {قالوا} أي المنافقون {للذين كرهوا ما نزل الله} أي لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ {سنطيعكم في بعض الأمر} أي بعض أموركم، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد، والتظاهر على الرسول، أو الخروج معهم إن أخرجوا، كما أوضح ذلك قوله تعالى: {اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ نَافَقُوْا يَقُوْلُوْنَ لِاِخْوَانِهِمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ لَىِٕنْ اُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيْعُ فِيْكُمْ اَحَدًا اَبَدًا ۙ وَّاِنْ قُوْتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ} [٥٩: ١١]، وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم. {والله يعلم إسرارهم} أي: إخفاءهم لما يقولونه لليهود. {فكيف} أي: يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم {إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم}.. {ذلك} أي التوفي الهائل {بأنهم اتبعوا ما أسخط الله} أي من إطاعة أعدائه، {وكرهوا رضوانه} أي في معاداتهم، فأدى بهم إلى الردة {فأحبط أعمالهم} أي التي كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب، ومن الفضائح الدنيوية. محاسن التأويل، ٨/٤٧٦-٤٧٧.

وقال عبد الرحمن السعدي (١٣٧٦ هـ): {سنطيعكم في بعض الأمر} أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي {والله يعلم إسرارهم} فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها. {فكيف} ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة {إذا توفتهم الملائكة} الموكلون بقبض أرواحهم، {يضربون وجوههم وأدبارهم} بالمقامع الشديدة. {ذلك} العذاب الذي استحقوه ونالوه {بـ} سبب {أنهم اتبعوا ما أسخط الله} من كل كفر وفسوق وعصيان {وكرهوا رضوانه} فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدنيهم منه، {فأحبط أعمالهم} أي: أبطلها وأذهبها. تيسير الكريم الرحمن، صفحة ٧٨٩.

فهؤلاء المنافقون صاروا مرتدين كفارا بعد علمهم الحق، وبعد أن تبين لهم الهدى بقولهم للكفّار ما قالوا فقط؛ أي بقولهم هذا: "سنطيعكم في بعض الأمر". قال ابن حزم (٤٥٦ هـ): فجعلهم تعالى مرتدين كفارا بعد علمهم الحق، وبعد أن تبين لهم

الهدى بقوله للكفار ما قالوا فقط. الفِصَلْ، ١٢٢/٣. وقد سبق في ذلك كلام ابن جرير، وأبي السعود، والقاسمي. [٦] وهؤلاء المرتدين يواجهون التوفي الهائل – الذي ذكر في الآية – بسبب ارتدادهم بهذا العمل، وحبطت أعمالهم بهذا الفعل..

وأما من الذين كرهوا ما نزل الله؟ فقد مر في ذلك أنّ هذا شامل لجميع الكفرة، كما قال الماتُرِيدي: ثم كراهة نزول ما أنزل الله على رسوله كان من اليهود وجميع الكفرة اهـ، وقد مر في الباب كلام الشنقيطي أيضًا. وأما "بعض الأمر" فهو عام في أيّ بعض كان، فإنّ العبرة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد مر في كلام ابن جرير: {سنطيعكم في بعض الأمر} الذي هو خلاف لأمر الله تبارك وتعالى، وأمر رسوله ﷺ اهـ.

وتدبر ما في الآية على ما ذكرناه من كلام المفسّرين، وما سنذكره هنا، وقارنه مع أهل زماننا..

قال محمود الآلوسي البغدادي (١٢٧٠ هـ): {إن الذين ارتدوا على أدبارهم} أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر.. وفي إرشاد العقل السليم: هم المنافقون.. فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام {من بعد ما تبين لهم الهدى} بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة القاهرة.. {ذلك} إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم.. وهو مبتدأ، خبره قوله تعالى: {بأنهم} أي بسبب أنهم {قالوا} يعني المنافقين {للذين كرهوا ما نزل الله} هم بنو قريظة والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام.. {سنطيعكم في بعض الأمر} أي في بعض أموركم وأحوالكم وهو ما حكي عنهم في قوله تعالى: {اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ نَافَقُوْا يَقُوْلُوْنَ لِاِخْوَانِهِمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ لَىِٕنْ اُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيْعُ فِيْكُمْ اَحَدًا اَبَدًا ۙ وَّاِنْ قُوْتِلْتُمْ

---

[٦] وراجع أيضا في هذا المجال: البحر المديد لابن عجيبة (٣٧٤/٥)، فتح القدير للشوكاني (٤٧/٥)، فتح البيان لصديق حسن خان القِنَّوجي، ٧٣/١٣)، تفسير المراغي (٦٨/٢٦)، التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي (٢٤١/١٣)، تفسير حدائق الروح والريحان (١٩٠/٢٧؛ ط. دار طوق النجاة)، التفسير الوسيط - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ٩٦٩/٩. قال ابن تيمية (٧٢٨ هـ) بعد ذكر الآيات المبحوثة: وتبين أن موالاة الكفار كانت سبب ارتدادهم على أدبارهم؛ ولهذا ذكر في "سورة المائدة" أئمة المرتدين عقب النهي عن موالاة الكفار قوله: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم}. مجموع الفتاوى، ١٩٣/٢٨.

لَنَنْصُرَنَّكُمْ} [٧]، وقيل: في بعض ما تأمرون به كالتناصر على رسول الله ﷺ.. {ذلك} التوفي الهائل {بأنهم} أي بسبب أنهم {اتبعوا ما أسخط الله} من الكفر والمعاصي {وكرهوا رضوانه} ما يرضاه عز وجل من الإيمان والطاعات حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع إخوانهم اليهود.. {فأحبط} لذلك {أعمالهم} التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات. روح المعاني، ١٣/ ٢٢٩-٢٣١.

قال سليمان بن عبد الله (١٢٣٣ هـ) بعد ذكر هذه الآيات: فذكر تعالى عن المرتدين على أدبارهم: أنهم من بعد ما تبين لهم، ارتدوا على علم. ولم ينفعهم علمهم بالحق مع الردة، وغرهم الشيطان بتسويله وتزيين ما ارتكبوه من الردة.. ثم قال تعالى: (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض) فأخبر تعالى: أن سبب ما جرى عليهم من الردة وتسويل الشيطان، والإملاء لهم، هو قولهم للذين كرهوا ما نزل الله: "سنطيعكم في بعض الأمر". فإذا كان من وعد المشركين الكارهين لما نزل الله بطاعتهم في بعض الأمر كافرا، وإن لم يفعل ما وعدهم به. فكيف بمن وافق المشركين الكارهين لما نزل الله من الأمر.. فهؤلاء أولى بالردة من أولئك الذين وعدوا المشركين بطاعتهم في بعض الأمر. ثم أخبر تعالى عن حالهم الفظيع عند الموت ثم قال: (ذلك) أي: الأمر الفظيع عند الوفاة (بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم). الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك، صفحة ٥٠-٥١.

---

[٧] قال سليمان بن عبد الله (١٢٣٣ هـ): فعقد تعالى الأخوة بين المنافقين وبين الكفار. وأخبر أنهم يقولون لهم في السر: (لئن أخرجتم لنخرجن معكم) أي: لئن غلبكم محمد ﷺ وأخرجكم من بلادكم لنخرجن معكم (ولا نطيع فيكم أحدا أبدا) أي: لا نسمع من أحد فيكم قولا، ولا نعطي فيكم طاعة (وإن قوتلتم لننصرنكم) ونكون معكم. ثم شهد تعالى: أنهم كاذبون في هذا القول. فإذا كان وعد المشركين في السر ـ بالدخول معهم ونصرتهم والخروج معهم إن جلوا ـ نفاقا وكفرا وإن كان كذبا. فكيف بمن أظهر لهم ذلك صادقا، وقدم عليهم، ودخل في طاعتهم، ودعا إليها، ونصرهم وانقاد لهم، وصار من جملتهم وأعانهم بالمال والرأي.. ؟! هذا مع أن المنافقين لم يفعلوا ذلك إلا خوفا من الدوائر؛ كما قال تعالى: (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة). الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك (صفحة ٥٢، ط. مكتبة دار الهداية).

قال محمد الأمين الشنقيطي (١٣٩٣ هـ): والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره ما نزل الله في معاونته له على كراهته ومؤازرته له على ذلك الباطل، أنه كافر بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك: {فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم}.. والإشارة في قوله: {ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله} راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي أعني قوله: يضربون وجوههم، أي ذلك بضرب وقت الموت واقع بسبب {بأنهم اتبعوا ما أسخط الله} أي أغضبه من الكفر به، وطاعة الكفار الكارهين لما نزله. وقوله: {وكرهوا رضوانه} لأن من أطاع من كره ما نزل الله فقد كره رضوان الله؛ لأن رضوانه تعالى ليس إلا في العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل كراهة رضوانه لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع كارهه، فهو ككارهه. وقوله: {فأحبط أعمالهم} أي أبطلها، لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة.. والتحقيق الذي لا شك فيه: أن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله.

مسألة: اعلم أن كل مسلم، يجب عليه في هذا الزمان تأمل هذه الآيات من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن كثيرا ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد. لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد -ﷺ- وهو هذا القرآن وما يبينه به النبي -ﷺ- من السنن. فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله: «سنطيعكم في بعض الأمر»، فهو داخل في وعيد الآية. وأحرى من ذلك من يقول لهم: «سنطيعكم في الأمر» كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم. وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم. فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا: «سنطيعكم في بعض الأمر». أضواء البيان، ٧/ ٣٨١-٣٨٤.

وقال أيضا: ومن أعظم الناس نصيبا فيه هؤلاء الذين يأتون الكفرة الفجرة الذين يكرهون القرآن وما أنزل الله، ويقولون لهم: {سنطيعكم في بعض الأمر}، وأحرى إن أطاعوهم في كل الأمر، هؤلاء أكثر الناس نصيبا في ضرب الملائكة عند الاحتضار على الوجوه والأدبار والعياذ بالله. العذب النمير، ٥/١١٤. وراجع أيضا: الأساس في التفسير لسعيد حوَّى (٩/٥٣١٥، دار السلام - القاهرة، ط ٦، ١٤٢٤ هـ).

ويليه الجزء الثاني، وهو الجزء الأخير..